



القومية العربية والحياة

بقلم

نازك الملائكة



ماي 1985

القوميّة العربيّة والحياة

بقلم نازك الملائكة

لعل الصفة الكبرى لذهنية الانسان المعاصر هي الرغبة الجامحة في الحصول على تعريفات شاملة واضحة للاشياء كلها . فلقد تساقطت هالات القداسة عن الاشياء وبتنا مغرمين بالوضوح والاقتناع الكامل ، وبالغنا في ذلك فعدنا نطلب تعريفات حتى لما يكبر عن التعريف . ولعلنا ننسى ان التعريف ، في حقيقته ، حصر وتضييق وتقليل من قيمة الاشياء ، بينما تأبى الحياة وتتعالى كلياتها عن ان يضيق عليها . ومن ثم فاننا حين نمضي في بحثنا الاهوج عن التعريفات تكون النتائج وبالا علينا ، لان ما لا يعرف يبقى بعيدا راسخا مغلفا بالضباب لايرقى اليه شيء من الفاظنا ، بينما نتيه نحن ونغرق في تيه الكلمات والعبارات . وخلال ذلك يبقى قانون الاشياء التي فشلنا في تعريفها نافذا فينا ، يعمل في حياتنا ويسيرها ، تماما كما تسير الشمس حياة انسان ينكر وجودها بتعريف مغالط .

ولا ريب في ان البحث عن التعريفات قد جاءنا من الغرب ، من اوروبا التي يتصف الفكر فيها بانه متشكك قاصر عن ان يتحسس البصيرة المضيئة التي ركبتها الطبيعة في الانسان . واما نحن في هذا الشرق العربي فاننا نملك من روحانية الطبع وغزارة العاطفة ونقاوة الايمان ما يجعلنا نقف خاشعين مبهورين امام المغيب والمجهول ، سواء كان ذلك في اعماق كياننا الانساني المبهم ، ام في الكون الكبير كله . ولقد حاول الغرب ان يشككنا في قيمة هذه الصفة فينا كل التشكيك ، غير انها بقيت مع ذلك مزية فينا لانها لا تصدر الا عن اتصالنا بالاعماق الفطرية للانسان . لقد وقفنا دائما خاشعين امام الطبيعة وامام الانسان فتقبلنا الحقائق الكبرى تقبل تسليم دون ان نناقشها او نحاول تعريفها . وكان ذلك هو اساس حكمتناالشرقية .

لا ، لم نحاول ان نعرف اشياء مثل « الله » و « العروبة » و « الجمال » و « الروح » و « الغيب » و « العاطفة » لم نحاول ذلك حتى جاءنا هذا العصر الحديث الذي اسلم قياد اذهاننا الى اوروبا المتشككة . لقد افتقرت روحيتنا الى درجة اننا اصبحنا لانستطيع ان نستمتع بدفء الشمس قبل ان نجد تعريفا لهذه الحرارة السحرية التي تغرق كياننا كله وتملأنا بالنشوة والخدر اللذيذ . ولم يعد في امكاننا ان نشعر بعذوبة قوميتنا العربية الا اذا حصلنا اولا على تعريف شامل شاف لها . ونحن في ذلك اشبه بانسان يمتص قصب السكر ويرفض ان يجد له لذة الا اذا لجأ الى مختبر وحلل السكر الى جزئياته اولا .

وهكذا بتنا نسمع السؤال يضج ويصرخ ويدوي : ما هذه القومية العربية ؟ وما تعريفها ؟ ولاح السؤال للمستعجلين والبسطاء ـ ذكيا ومفحما ، ووقفوا عنده حائرين ، كما يقف انسان نفاجئه بالسؤال : « ما الجمال؟ ما تعريفه ؟ » فالحق انه سؤال عريض . واذا نحن عجزنا عن اعطاء تعريف فالمشكل خطير . ذلك ان عصرنا المريض بحب التعريفات على استعداد لان يعتقد بان مالا يعرف لا وجود له . ونتيجة اخفاقنا في صياغة تعريف للقومية العربية سنقضي عليها في نظر بعض الناس بان تختفي وتتلاشى وتصبح كلمة فارغة لاكيان لها .

في الشارع ، امام منزلنا : اذكر انني رأيت ذات مرة طفلا صغيرا ، اسود الشعر والعينين ، يتطلع الى الشمس في غيظ وحنق ، وهو يلهث تعبا . لقد كان طيلة دقائق

> **« ان جوع العروبة في نفوسنا لهو الذ انواع الجوع واحبها لانه الجوع الاسمي الذي يرتكز الى عطش الاكتمال وحرقة الحياة نفسها ، فلا سعادة لنا من دونه ولا غد ولا انسانية »**

كثيرة يبذل مجهودا شجاعا في سبيل ان يسبق ظله الذي يمتد امامه في الشارع . كان يظن انه اذا ركض فجأة فسوف يأخذ ظله على غفلة ويسبقه . وكان يقف متربصا لحظات ، ثم يثب في قفزة سريعة واحدة ، ويحسب يقينا ان الظل لن يسبقه على غفلة ويسبقه . وكان يقف متربصا الظل امامه مهما فاجاه ومهما احتال عليه . واخيرا رأيته يستسلم وينصرف مغتاظا عن هذه اللعبة . واني لاتذكر هذا الطفل الساذج كلما رأيت محاولات المغتاظين في حربهم لعروبة الامة العربية . ذلك انهم ، حين يحاولون ان يفصلوا بين سكان هذه البقعة وقوميتهم العربية ، ليسوا باقل سذاجة من الطفل الذي يحسب ان من الممكن ان يفصل جسمه عن ظله بحركة مفاجئة . ان هذا الجسم سوف يلقى هذا الظل مهما غير الطفل حركته ومهما اسرع فيها . وكذلك سوف يكتسب سكان هذه المنطقة صفة العروبة مهما فعل المغتاظون ومهما حاولوا تغيير الاسماء التي يطلقونها عليهم . **أن العروبة هي الصفة التي تمنحها هذه البقعة لأبنائها كما ان هذا الظل ، هو الظل الذي يلقيه ذلك الجسم على الارض . ولن تتغير هذه الحقيقة مهما صغنا لها من تعريفات .**

ومع ذلك ، فما زال المطلوب منا ان نجد تعريفا للقومية العربية ، تماما كما ينبغي لنا ان نعرف الجمال والحياة والدفء وضوء القمر وطعم السكر . وحين نقف بازاء هذه المبهمات الجميلة لنعرفها سنلاحظ انها كبيرة بحيث تصغر امامها كل لغة ، وان محاولة التعريف تنطوي ، في ذاتها ، على فرض سابق باننا منفصلون عن هذه الاشياء واننا اعلى منها . وذلك موقف ساذج ينبغي الا نقع فيه ذلك ان هذه الاشياء ترتبط بحواسنا وكياننا بحيث لا يعود من الممكن ان ننفصل عنها لنحكم عليها من الخارج . ان القومية العربية وضوء القمر وطعم السكر كلها اشياء تكبر عن التعريف لانها قوام حياتنا . واي تعريف يحد من لانهائيتها ، لايسيء اليها وانما يسيء الينا نحن . وذلك لان قانونها نافذ فينا سواء اعترفنا به ام لم نعترف وسواء اوجدنا له تعريفا ام لم نجد . فاذا انشغلنا عن ذلك القانون بالتعريفات ، او وضعنا تعريفا يقلل من قيمتها فلن يتلقى النتائج المريرة المضرة سوانا .

وهكذا ننتهي الى القول **بان القومية العربية — مهما كان تعريفها — تنمو في قلوبنا ، بمعزل عن وعينا ، وتختلط بكل قطرة من دمائنا ، وترسب في عظامنا وتتصلب معها .** وسواء سمعنا بها ، واهتدينا الى اسمها ، ام بقينا على جهل تام بها ، فنحن نحتويها في اعماق كياننا . وما ذلك الا لانها محصلة الاندفاع العفوي للحياة نفسها ، فهي كالزهرة تنبت على الشجرة لمجرد ان هناك تربة وغذاء وماء، لمجرد ان هناك حياة . **فما تكاد الانسانية توجد حتى تبدأ القومية** . وكما ان الحياة تنمو بالشمس والغذاء والهواء ، فكذلك ينمو الشعور القومي في دماء الانسانية الحية . ان شمسنا العربية تسكب دفئها القومي في دمائنا منذ الطفولة . **ونحن عرب ونحن قوميون لمجرد اننا عشنا حياة طبيعية ونمونا مع الضوء والنسيم الحر والخضرة .** والحق اننا اذا رضينا ان نضيق القومية العربية الى درجة نحصرها فلن نتردد في ان نعرفها بانها **الحياة نفسها ، الحياة الانسانية كما تتجلى في هذه البقعة الخصبة الموهوبة من العالم .**

ان هذا التعريف بان القومية هي الحياة ، ينطوي ، على صغره ، على مضمونين نحب ان نقف عندهما :

المضمون الاول **أن القومية العربية ارث في كياننا لامهرب لنا من ان نحمله ونخضع له ونتطبع به . انها كائنة وواقعة،** ونحن في داخل حدودها ، وهي تحيط بنا وتتضمننا وتشتمل علينا . فاينما اتجهنا ومهما اعتنقنا من الافكار فنحن قوميون عرب ، شئنا ام ابينا ، تلك هي صفتنا الحقة التي يتحكم قانونها فينا . ان الطفل العربي يصبح قوميا بمجرد ان يولد ، والانسانية عموما تكتسب صفة القومية بمجرد ان تكون صفة تتحرك وتتغذى وتبدع . وما يكاد المرء يصغي الى متطلبات الحياة والفطرة في نفسه حتى يصبح قوميا . وانه لاكيد اننا لو نجحنا في تجريد اي عربي من قيوده وتصنعاته والتواءات تربيته ، لوجد نفسه عربيا قومي الاتجاه .

اني احتفظ في ذاكرتي بحكاية قرأتها مرة عن الاسكندر الكبير الذي غزا الشرق العربي قبل الميلاد واوغل فيه . يقال انه اخضع البلاد كلها غير العراق الذي بقي ثائرا مشاكسا وابى ان يستكين فكان يقلق راحة هذا الفاتح بلا انقطاع . وعندما تعب الاسكندر استدعى حكيما وشاوره قائلا : « لقد يئست من اخضاع اهل العراق وانا افكر في ابادتهم ابادة تامة بالقتل ليتاح لي ان انتهي منهم دفعة واحدة . فماذا ترى ؟ » وقد فكر الحكيم قليلا ثم رد عليه « لاتفعل . فلا فائدة لك في ابادتهم . ذلك ان الجو العراقي والتربة العراقية سرعان ما سيخلقان قوما عراقيين على غرار الذين قتلتهم تماما . » ان هذه الحكاية تشخص فكرتنا خير تشخيص ، **فالجو العربي — في العراق وغير العراق من اقطار الوطن — لا يملك الا ان يخلق عربا ، وهذه القومية هي محصول عاطفي وذهني تنبته تربتنا وسهولنا وانهارنا . فلو قتلونا كلنا ، لنشأ بعدنا عرب مثلنا وارتفعت اغنية العروبة لتملأ الفضاء كما كانت دائما .**

ان القومية العربية هي ، في الواقع ، مجموع ما فينا من خصائص وراثية وبيئية ، والخلاصة الحقة لبنائنا العاطفي وتكويننا النفسي والعقلي والجسمي . انها تلازمنا كما تلازمنا سمرة وجوهنا وسواد عيوننا وعاطفيتنا . فالسمرة والعاطفية والعروبة نفسها ، خصائص عفوية فينا، ليس لنا يد في تكوينها ولا سيطرة لنا عليها ، الا بمقدار ما تستطيع شجرة التوت ان تسيطر على خصائصها . ولعلنا نحمل عروبتنا كما تحمل شجرة التوت اثمارها التي تنضح بالسكر والعصير وهي لا تدري لماذا تنبت وكيف .

وليست العروبة باقل سكرا او عبيرا من ثمرات التوت لو نحن تذوقناها بشفاه الروح . ذلك ان التوت هو فضيلة الشجرة التي تنبته ، واما العروبة فهي فضيلتنا نحن ، بنفس الاسلوب . وانه لمحزن الا نستطيع ادراك هذا ، فيفوت علينا بذلك ان نستفيد من المزية الرائعة التي تمنحنا اياها هذه الفضيلة ، قوميتنا .

اما المضمون الثاني لتعريفنا بان القومية هي الحياة ، فهو اننا بهذا التعريف **نسبغ على القومية ما للحياة من ضرورة، فهي مطلوبة لاننا لا نستطيع ان نعيش من دونها ولان المجتمعات لا تقوم على شيء غيرها .** يطلب الانسان الماء والغذاء بفطرته لانهما يغذيان جسمه ، وهو يبحث عن الشمس ويحكمها في حياته لان وجوده يرتكز اليها . وكذلك نبحث عن قوميتنا ونلتصق بها لانها تغذينا وتحمينا وتفسر لنا وجودنا ، ومن دونها تستحيل الحياة . ونحن في ذلك شبيهون بالاشجار التي تبحث عن مصلحتها فتأخذ من الدفء والضوء والالوان ما يعينها على النمو والحياة ، وكذلك تبحث الانسانية فينا عن مصلحتها وضمان سعادتها فتجدها في الشعور القومي .

ولعل اكبر الادلة على ضرورة الاحساس القومي هو ابسطها على الاطلاق . ذلك شأن الحياة ، يكمن اعمق ما فيها من عمق ، في ابسط ما فيها من بساطة . وقد الف الانسان ان يعقد الامور فيبحث دائما في ما هو بعيد ، بدلا من ان يلقي نظرة حوله . احيانا نبحث ساعات عن شيء اضعناه في الوقت الذي يكون فيه في احد جيوبنا . وهكذا رحنا نبحث عن مبررات الاحساس القومي بعيدا عن ذواتنا مع انها تكمن فينا نحن ، قبل أي موضع اخر . ذلك ان مجرد وجود احساس ما ، يدل حتما على انه ضروري، لا يمكن الاستغناء عنه . والواقع ان الوجود والضرورة هما شيء واحد لايمكن تقسيمه الى اثنين . ان ما هو موجود انما كان موجودا ، لمجرد انه ضروري ، ذلك هو القانون . **وما دامت القومية العربية شيئا واقعا محتوما على كل انسان ولد في هذه المنطقة وعاش فيها ، فنحن لانحتاج الى ان ندعم ضرورتها باي دليل غير وجودها نفسه .**

في العلوم الطبيعية نقرأ ان الحاجة هي التي تخلق العضو وليس العكس ، او ان الاعضاء انما نشأت في الاصل لانه قد كانت هناك حاجة اليها تحتم وجودها . وهذا صحيح في الميدان العاطفي والاجتماعي ، صحته في المجال العضوي . وهو التبرير الاكبر لوجود الشعور القومي في نفوسنا . فانما نحن عرب قوميون لاننا كنا دائما وسوف نبقى محتاجين الى ذلك . وعلى اساس عروبتنا هذه قامت مظاهر حياتنا كلها ونما تفكيرنا ونشأت حضارتنا . فلو طلب الينا الان ان ننزع قوميتنا ونستبدلها بشيء اخر ـ مهما كان ـ لكان ذلك اشبه بان يطلب الينا ان نقطع رؤوسنا او نتخلص من قلوبنا ونستبدلها باعضاء اخرى .

ان القومية العربية قد كانت نتيجة اجتماعية محتومة تطلبتها ظروف هذه المنطقة عبر قرون التاريخ البطيئة . او لنقل انها تشبه ان تكون مجموعة اعضاء اجتماعية خطيرة تقابل الاعضاء الفزيولوجية ، وقد باتت لهذه الاعضاء وظائف حية ، فمن المستحيل ان ننزعها دون ان نموت . لقد اصبحت هذه القومية حاجة طبيعية «بايولوجية » ينبغي ان تتحقق لكي يستطيع الانسان العربي ان يكون سعيدا ويعطي الحياة اوسع عطاء يتاح له . وسوف نستعرض فيما يلي بعض وجوه هذه الحاجة .

أ ـ الحاجة الانسانية الى المشاركة

يستند الشعور القومي ، في جوهره ، الى الانسجام الطبيعي القائم بين الناس الذين يعيشون في بيئة واحدة ويتحدرون من ظروف تاريخية واحدة . وهذا الانسجام ضرورة من ضرورات الحياة ، يذوي الانسان من دونه ويموت . انه قانون نافذ فينا سواء أادركناه ام لا . فنحن في حياتنا القومية نحتاج الى ان نجسد اناسا يفهموننا ويشاركوننا عقائدنا وحماساتنا وارائنا . ونحن نبحث عن هؤلاء الناس بحثا دائبا ، فما نكاد نجد من يشبهنا حتى نندفع نحوه بغريزة خفية محتومة . وقد الف الانسان ان يغتاظ ويتألم اذا احس انه في وسط يخالفه نزعاته ورغباته العميقة الكبرى . وقد ترحل الاسر من الاحياء التي ترى نفسها فيها غريبة ، مفضلة احياء اخرى تلقى فيها من يفهمها ويتذوق ما تتذوق . وقد تترك مجتمعات كاملة وسطها وترحل الى اوساط اخرى تجد فيها المشاركة والفهم . وهذه الرغبة الاجتماعية تنبع من صميم متطلبات الحياة الفطرية وغرائزها . ان الطبيعيين يخبروننا بان المخلوقات الحية ـ مهما صغرت ـ تبحث عن الوسط الذي يضع في طريق نموها اقل مقدار من المقاومة . واذا اشتدت المقاومة ولم يستطع الكائن الحي ـ لسبب ما ـ أن يغير وسطه ، اضمحل وربما انقرض نوعه كله على ممر السنين . وذلك ينطبق حرفيا على الانسان الذي يتطلب فوق الانسجام الطبيعي الذي يتطلبه كيانه العضوي ، انسجاما عاطفيا وتجاوبا فكريا . ولن يتاح لهذا الانسان أن يستفيد من موارده العقلية والروحية وينتج الانتاج الحق الذي خلق له الا اذا تيسر له الوسط الملائم الذي يضمن له الحد الادنى من الطمأنينة والرضى والسعادة . وذلك ينطبق على الافراد كما ينطبق على المجتمعات ، وهو الاساس في حاجة المجتمعات الى ان تقوم على دعائم من قوميتها .

والقانون هو انه كلما كانت العناصر المشتركة بين الاقوام اكثر واعمق جذورا كانت القومية التي يكونونها ارسخ واصلب عودا واقدر على المقاومة . والقومية العربية محظوظة بكثرة هذه العناصر فان سكان المنطقة الممتدة من

المحيط الاطلسي الى المحيط الهندي يرتبطون بعدد عجيب من الروابط كاللغة والتاريخ والثقافة والحضارة والتقاليد والارث الخلقي والاحوال الاجتماعية والظروف السياسية وغير ذلك . وهذه الروابط هي ، ولا ريب ، مصدر سرور كبير لكل فرد عربي بما تمنح الانسان من فرح الاحساس بالمشاركة وطمأنينة الارتباط بالملايين اعمق ارتباط . واي شعور من الغبطة يعترينا حين نسافر متوغلين في بوادي جزيرتنا العربية فنسمع حيث سرنا قلوبا تخفق معنا وتتحدث بلغتنا وتتلو قصائدنا وتردد اغانينا ؟ ان التاريخ الذي اظلنا قد اظل معنا الجزيرة السمراء وشمالي افريقيا، وكل ما نملكه من كنوز فكرية وجمالية هو ايضا ملك لهم ، من معلقة امرىء القيس الجميلة ، الى اقاصيص شهرزاد وعنترة وقد تحددت من ليلة الى ليلة عبر قرون التاريخ العربي في كل مدينة عربية . هذه هي المشاركة الثمينة التي تعطينا اياها عروبتنا التي تتحرق في دمائنا ممدودة الذراعين نحو تسعين مليونا من العرب يتوزعون على مساحة شاسعة من الارض العربية .

ان هذه المشاركة هي التي تعطي للقومية العربية واقعيتها وجذورها المتمكنة ، ومن دونها تبقى الحماسة نظرية فلا تسندها الحياة . كلما كان الانسجام اكبر واوسع مدى كانت الرابطة اوثق واقوى وكان ثباتها في وجه اعدائها ايسر . ان المشاركة حيث وجدت تستتبع حماسات وحبا وصداقات . ومن ثم فان اغنية عربية واحدة تنبعث في جمع مختلط من ابناء العرب كفيلة بان تلهب مشاعرهم في لحظة ، وتشدهم بالف رابطة مرهفة فيندفع الواحد منهم نحو الاخر يبتسم ويصافح ويتحدث . ذلك ان الاغنية جزء من تراث الامة النفسي . ان لكل فرد معها تاريخا شخصيا . قد ترتبط الاغنية بلحظة من لحظات الطفولة لدى احدنا ، بيوم غائم معين لدى الاخر ، بقطعة حلوى شعبية لدى ثالث ، بفترة الم موجع لا تنسى لدى رابع . لقد سمعنا هذه الاغنية ذات صباح ، في فترة معينة من عمرنا تركت فيها نكهتها ولونها . ومنذ ذلك اصبحت جزءا من تاريخنا الداخلي . ولكنها ايضا ، جزء من تاريخ فتاة جزائرية تعيش بعيدا عنا وراء المسافات ، وهي ايضا اغنية صياد سمك يافع على البحر الاحمر تبوح سمرة وجهه بانه يتحدر من تاريخنا العربي نفسه . وما تكاد هذه الاغنية تنبعث حتى تشحن فينا تلك العواطف الدفينة والذكريات الحية وترفعنا الى مستوى واحد من الانفعال .

كل هذه الروابط ، كل اغنية عربية ، كل بيت شعر قديم ، كل حكمة وكل مثل ، كل تحية وكل لفظة في اللغة ، كل ذلك يشكل النسغ القومي الذي يجري في كيان العروبة الموهوب . وهذه الكنوز من الاغاني والقصص والالفاظ والاجواء والعواطف تربطنا ربطا محكما وتحفظ لنا في اعماقها رصيدا جاهزا من الانفعال يستطيع ان يشحن وينبعث في اية لحظة ويجعل ايدينا تتماسك وتخلق مناصفا لا تزعزعه قوة في الوجود .

ب ـ الحاجة الى البذل العاطفي

يبدو احد وجوه حاجتنا الى القومية في حقيقة انسانية بسيطة هي ان الانسان مخلوق ذو عواطف ، وانه مجهز بقدرة عظيمة على الانفعال في مختلف الاتجاهات . وذلك انها طبيعة راسخة في الفرد البشري انه يحتاج الى ان ينفق طاقته الانفعالية ويتخلص منها والا اصبحت عبئا عصبيا ثقيلا يبهظ كيانه ويصيب توازنه النفسي بالاختلال . والمحبة ، بمختلف وجوهها ومراتبها ، هي السبيل الاعظم لانفاق هذه الطاقة المشحونة من الاحاسيس فالانسان مخلوق محب ، وهو لا يقوى على الحياة مالم يحب كثيرا من الناس وكثيرا من الاشياء مختلف انواع الحب . ان لدينا طاقة من الحماسة والمودة تبحث ابدا عن مصب فتجد متنفسها في اصناف الصداقات والعلاقات الفردية التي يدور كل فرد في فلكها ، وتتسع حتى تتخطى الحدود الفرعية فتتجه الى الدوائر الاكبر ، حين تلتقي بالشعور القومي . ان العواطف الفردية الصغيرة التي يحسها انسان نحو جاره لا تلبث ان تكبر حتى تتحول الى العاطفة القومية . وكما ان الفرد لا يقوى على الحياة من دون اهل واصدقاء ومعارف يبادلونه مختلف درجات الشعور ، فكذلك يحتاج ايضا الى ان يحب مجموعا كبيرا بالغ الكبر ويمد اليه ذراعيه متعاطفا معه كل التعاطف . وانها لمزية خاصة بالانسان انه يملك ، في اعماق نفسه ، من بذور الخير والمودة اكثر مما يحتاج اليه في دائرة علاقاته الشخصية الضيقة ، فلا بد له ان يمنح من حبه وحنانه الى الملايين . ان الفرد منا يحس باندفاعات جياشة نحو الاخرين ، نحو المجموع الاكبر ، تدفعه اليهم عواطف اخاذة وحنان مبهم لاتفسير له يصدر عن طبيعته العميقة الملزمة . وهذا الاحساس هو جوهر الشعور القومي،نعطيه الى الحياة لانه يخلصنا من كثافة المشاعر الودية التي تغمر كياننا ولا بد ان ننفقها ، وفق قانون طبيعتنا . اذا كانت صداقاتنا الفردية تمنحنا تحقيقا لذواتنا المتعطشة الى الاخذ والعطاء ، فان صلاتنا الشعورية بالملايين توسع دائرة انسانيتنا وتخرجنا من الخاص الى العام ، وتضاعف

مواهبنا وملكاتنا وقوة الخير في انفسنا . ومن هنا كانت القومية انماء لانسانية الفرد وشحذا لدوافع الخير والروحية في كيانه .

وقد يعترض معترض بان في امكان المرء ان ينشىء صلات الحب هذه مع ابناء القوميات الاخرى ، ومن ثم فان هذه الطاقة العاطفية الفطرية في الانسان ، لن تستوجب قيام المجتمعات القومية . والجواب على هذا الاعتراض ما سبق ان اشرنا اليه من ضرورة قيام عنصر المشاركة لكي يكتمل للانسان استقراره الروحي الحق وسعادته . اجل ، ان في امكان المرء ان يحب افراد القوميات الاخرى ، خارج منطقته ، كل الحب ، ولكن ذلك لن يملأ نفسه حق الملء ، وسوف يبقى في روحه فراغ دائم اشبه بالمرض ، ينادي بطلب علاقات قومية . وذلك هو سبب مانرى من تكتل الجاليات الاجنبية في البلاد ، فانهم يجدون سعادة في تقاربهم حتى لو كانوا في اوطانهم اعداء لا يمكن التاليف بين قلوبهم .

ولعله من سوء حظ دعاة العالمية ، ان الانسان ليس مخلوقا نظريا يخضع للعمليات الحسابية : وانما هو دائما ابن بيئته يستمد انسانيته وتكوينه المعنوي والمادي منها . وانما تكون سعادته ويكون نجاحه بمقدار ما يحقق لنفسه من انسجام في مختلف الدوائر التي يعيش فيها . فقد يؤمن فرد عربي احر ايمان واخلصه بانه ليس من فرق بين الشعوب ، ثم يذهب – على اساس ايمانه ذاك – ليعيش في استراليا مثلا ، ظانا انه بذلك قد حقق لنفسه السعادة المطلقة . غير انه سرعان ما يصطدم بانه غير منسجم ، وان المشاركة بينه وبين المحيط الجديد من الضآلة بحيث يشعر بانه تائه مضيع عطشان ، دون ان يفهم لماذا . ولسوف يدرك هذا الانسان بسرعة ، ان ذلك الحب الذي ظن انه يكنه للناس والاشياء في البلد الجديد لم يكن حبا كاملا يرضي نفسه كلها وانما كان نزوة مثالية انساق فيها مع نظرية محضة . وانما المحك هو القلب الذي يحكم بامره ولا يخضع الا لقانونه . وهذا القلب يغص بالدموع حين يتذكر النخلة الهزيلة التيكانت تقوم امام منزله في الوطن البعيد ، ويتأثر حتى لذكرى اولئك القرويين العرب الحفاة بشتائمهم وجهلهم وامراضهم . ولسوف يحس هذا الانسان كما احست صديقة لي غادرت مدينتها بعد ان اغرق دجلة الحي الشاسع الذي كانت تسكنه اسرتها سنة ١٩٤٥ ، فما زالت هذه الصديقة تحن اشد الحنين الى رائحة الماء الاسن والبق الفظيع الذي عشش في المنطقة المغرقة بماء النهر .

ج – الحاجة الى الارتكاز والاتساع

احد وجوه حاجة المجتمعات الى الاحاسيس القومية ان القومية تمد انسانية الفرد وتوسعها في مختلف الاتجاهات . . ذلك ان الانسان ، حين يشعر بانه فرد في جماعة كبيرة مقتدرة عديدة الملايين ، يكتسب احساسا بقوة روحية هائلة وباتساع وامتداد باذخين ليس لهما حدود . وما من شيء يلهب ملكات النفس مثل هذا الاحساس بالقوة والثقة والامتداد . ان الروابط الوثيقة المرهفة التي تشد عشرات الملايين من العرب ، تخلق منهم جماعة بكل ما في هذه الكلمة من مدلولات اجتماعية . وكل جماعة قوية خاصة اذا كانت جماعة متجانسة دما وتاريخا ولغة وتقاليد .

ان تلك اللحظة التي ينبثق فيها الاحساس القومي في اعماق الفرد العربي هي لحظة انبعاث تشحذ فيه طاقات جديدة هائلة لايحدها شيء .

انها لحظة ميلاد وحياة وتفجر مواهب وتعطش للعمل والانتاج بكل ما في قدرة الانسانية من حماسة وحرارة . فما يكاد اصبع القومية يلمس ضمير الفرد العربي حتى يتسع في الزمان والمكان معا ويلاحظ فجأة ان له ملايين من الاخوة والاحباء في بقعة شاسعة من الدنيا . انه يخرج من ضيق بغداد او القاهرة او بيروت الى فضاء رحب ممتد ، اوسع مما تصله الاحلام . ان له ، لهذا الفرد العربي الذي تختلج روحه بنبعته القومية ، موانىء بيضاء مسترخية على البحر الاحمر والمحيط الاطلسي ، له مدن خضراء في شمالي افريقيا وجنوبي الجزيرة ، له مناجم وآبار نفط في بقاع قاصية ، له قنال السويس وشط العرب ومغارة قاديشا ، وهو يجد نفسه يتسع ويتسع حتى يسمع نفسه يتكلم باللغة عينها في الاردن ، ويضحك لنكتة عربية في ليبيا ويشارك باغنية شعبية ساذجة في صعيد مصر . حيثما اتجه هذا العربي فسيجد اناسا يتحدثون بلسانه ويبتسمون لنكته ويرددون اغانيه ويحفظون تاريخه ويتحمسون لكل مايتحمس له ، وفوق كل شيء ، سيجد اناسا يحبونه وتخفق قلوبهم في الترحيب به ويفتحون له اذرعهم المتلهفة .

وهكذا تمنحنا عروبتنا احساسا بقوة لامثيل لها . ان هذه الملايين من الوجوه العربية المشربة بحرقة الشمس تعطي الفرد الواحد منا سندا عظيما ونصرا وثقة ، وتشعره بانه لايقف وحيدا وانما ينتظره عبر المسافات اخوة مشاركون لاتشحب مودتهم ولا تنطفىء ولا تحول . وما يلبث الفرد حتى يملك فيضا من الثقة بالنفس والقدرة على الكفاح والحياة .

ان ترديد تسعين مليون انسان للاغنية التي اغنيها يخلق في نفسي ولا ريب قدرة سحرية على الاندفاع حتى

استطيع ان ادحر الحواجز كلها ، وهذه اروع هدية تمنحنا اياها العروبة .

في الواقع ان هذه القوة الغلابة التي تكسبنا اياها احساساتنا القومية هي التي تجعل الاستعمار يحارب الدعوة القومية ويحاول خنقها بكل وسيلة تتاح له . يحاول الاستعمار ان يمنعنا من ان نكون قوميين كما يمنعنا من الاستفادة من الغلال والكروم الطيبة التي تمنحنا اياها اراضينا الخيرة المعطاء . يود هذا الاستعمار لو حمل انهارنا ومضى بها ، لو عرى جبالنا ووديانا من التوت والجوز والزيتون ، يود لو جف النسيم فلم يعد يحمل الرطوبة والحنان الى شفاه السنابل المتحرقة في سهولنا العربية الخضر . ولكن القومية العربية هي أثمن مايريد الاستعمار أن يسلبنا اياه . فلو كانت هذه القومية مادة تلمس وتحمل لمضى بها ديغول وايزنهاور ومكميلان كما يمضون بالنفط والذهب والقطن والتمور . ولكن قوميتنا والحمد لله ،لاتسرق . ان العروبة هي كنزنا واعز ممتلكاتنا . ونحن نملكها كما نملك النور والهواء والقمر والعبير ، فهل في وسع جيوش الاستعمار ان تسلبنا هذا ؟ اننا نقبض في ايدينا على القوة القهارة التي تؤرقهم وتخيب كل مطامعهم . ففي ايدينا المتشابكة حرارة العروبة وحماسة القومية فلن يفرقنا بعد ذلك اي شيء .

ان ضمان المجتمع القومي لهذه الحاجات الطبيعية الثلاث في حياة الفرد يجعل القومية العربية سبيل حياة للفرد وللجماعة معا فنحن نحس الحاجة اليها كما نحس الجوع والعطش والحنين . وان جوع العروبة في نفوسنا لهو ألذ انواع الجوع واحبها لانه الجوع الاسمى الذي يرتكز الى عطش الاكتمال وحرقة الحياة نفسها ، فلا سعادة لنا من دونه ولا غد ولا انسانية .

بيروت 1960 نازك الملائكة



حوار رجاء النقاش مع نازك الملائكة

حول مقالها الأخير

بيروت 1960

رجاء ـ اقرأ لنازك مقالات في النقد الادبي تفيض بالوضوح والموضوعية ولكن هاهي في البحث السياسي تكتفي بموهبتها الشعرية .

نازك ـ اني اكتفي بموهبتي الشعرية ـ على حد تعبيرك ـ في كل ماكتبه من نثر وشعر ولا اذكر انني شغلت بالي يوما بالموضوعية . الموضوعية يا اخي تتبعني ، وانا اترفع عن ان اجعلها قانونا يستعبدني . ولكن قل لي يارجاء ، لم انت خائف كل الخوف من « الجمال والعذوبة» في بحثي ؟ اذا كان من الحق ان الفجاجة اللغوية وشناعة الاسلوب يلازمان كثيرا من الابحاث العلمية فهل من الحق ان كل ماهو جميل لا بد ان يخلو بالضرورة من صفة الموضوعية والعلمية ؟. والظاهر ان جمال تعابيري قد كان ذنبا ادبيا عظيما ، ولعلي لو كبحت جماح حماستي للعروبة وحبي لها لنجحت في تحاشي الصور الشعرية التي افقدتني ثقتك الى هذا الحد . والواقع ان من عادتي ان « اتكلم شعرا » كلما انفعلت ، ولا خلاص لي من ذلك . ومع ذلك ، فانا اثق ان الموضوعية والعلمية والوضوح لاتتناقض قط مع السكر والعبير . وهل كتب علينا ان نكون خشنين وشنيعين لمجرد ان نحافظ على الموضوعية ؟ واذا كانت الموضوعية تناقض الجمال فما الدليل على انها فضيلة ؟ ولماذا يجب ان احبها ؟

رجاء ـ مثل هذا الكلام الذي يملأ المقال من اوله لاخره لايمكن ان اقول عنه الا انه نوع من « القومية الخيالية » او « الرومانتيكية » .

نازك ـ من يقرأ عبارتك هذه وما بعدها يظن حتما ان بحثي قد تناول الدولة العربية الموحدة ووضع لها نظاما اقتصاديا واجتماعيا وان نظامي المقترح كان خياليا ورومانتيكيا فكان لابد لك من ان تقول ذلك . والواقع ان بحثي لم يعد الا حول العاطفة القومية ومبرراتها التي تجعلها ضرورية ، ولذلك عنونته « القومية العربية والحياة » وقد كنت صارمة في تمسكي بهذه الدائرة فلم اتحدث عن اي نظام ولم اشر حتى الى امكانية قيام دولة عربية تستند الى هذه القومية . ولذلك تبدو الفاظك التي تستعملها اضخم مما يستحق بحثي واكبر . وهذا غريب وهو يلفت النظر .

رجاء ـ ان القومية العربية لاتكون بديهية الا عند مواطن زالت من نفسه ومن عقله جميع الظروف التي تلقي على عقيدته ظلا من الشك .

نازك ـ اسمح لي ان اسجل احتجاجي على اعتبارك القومية العربية « عقيدة » . ان ذلك يقلل من قيمتها وينزل بها الى مستوى الاشياء العارضة المتبدلة . ذلك ان من السهل ان تستبدل العقائد بين يوم وليلة . العقائد تخضع للثقافات ، والاهواء ، والنمو الفكري للانسان . انها مكتسبة لا اصيلة ، وهي تروح وتجيء وليست ثابتة . واما العروبة فهي فضيلة جبرية لايستطيع الانسان ان ينزعها ولا ان يقاومها . انها نحن ،

ولن نفقدها الا اذا فقدنا دمنا ووجودنا نفسه .

واسمح لي ايضا ان اقول ان العربي لايمكن ان يتشكك في عروبته الا اذا تعمد موجه مغرض ان ينحرف به ويشككه وهذا لايتم الا بتشويه كل ماهو اصيل وعفوي في طبيعة العربي . لقد قلت في بحثي اننا اذا جردنا العربي من قيوده وتصنعاته فانه سيجد نفسه قوميا بالفطرة ، اذا كان هناك عربي اصيل يتشكك في قيمة عروبته فان شكوكه هذه بضاعة فاسدة مدخولة . وهذا الانسان هو عدو نفسه . اننا لانحتاج الى ان نحاول اقناعه فلسوف تلقي عليه طبيعة الاشياء درسا موجعا عاجلا ام اجلا. ذلك ان من يضع يده في النار يحترق ، والعروبة حقيقة ، وكل حقيقة تتحكم ولا يحكمها شيء على الاطلاق .

رجاء ـ لو كانت القومية العربية الى هذا الحد بديهية لما اصبحت بالنسبة لنا ـ نحن العرب ـ اعصب معركة نخوضها .

نازك ـ يبدو اعتراضك وجيها اول وهلة . فاذا كانت القومية العربية بديهية فلماذا اذن نجند القوى ونحرق اعصابنا ونسلم ليالينا للارق من اجل ان ندفع تيارها ليرش الندى والنور على جفون الارض العربية العطشى ؟ بلى يا اخي ، سؤالك وجيه . ولكن قل لي ، بنفس القوة التي تعترض بها ، قل لي ماهدفنا من هذه المعركة التي نخوضها ؟ ترانا نريد بها ان نقنع العربي بان عروبته بديهية ؟ ام اننا نريد ان نقنع الاستعمار بان عروبتنا بديهية ؟ لا بل اليست البداهة الرائعة التي تتصف بها عروبتنا هي التي تجعل معركة الاستعمار ضدها بهذه الوحشية وهذه الضراوة ؟ اليست حقيقة القومية العربية واصالتها وتمكنها هي التي تؤرق الاستعمار وتجعل معركته عنيفة ؟ هنا في اعماق قلوب التسعين مليونا تكمن عروبة اصيلة بديهية ، وهناك يتربص استعمار جشع لا ضمير له ، يقف متلمظا لينزع حقوق هذه الملايين من الجياع والحفاة والعراة . من اجل ذلك تقوم المعركة ، لا من اجل اثبات بداهة العروبة . فلنحذر الف مرة ان نقيس اصالة قوميتنا بمقدار ماتلقاه من مقاومة الاستعمار واعوانه . ان ذلك مقياس اعوج خطر يقع الغبن فيه على اكتافنا نحن . وهو لا يزيد عن ان يكون مزلقا خبيثا تنصبه لنا الذئاب المتربصة وراء الحدود . ولسوف يمضون في زرع الشوك والمسامير في طريق عروبتنا الصاعد الى المستقبل ، وكلما جرحت اقدامنا أتخذوا دمنا الذي يقطر دليلا على ان العروبة غير بديهية وغير اصيلة . وكان في وسعنا ان نجرح فلا تسيل دماؤنا .

رجاء ـ المسألة تحتاج الى جهد كبير لتوضيح الفكرة العربية لدى من يتشككون فيها .

نازك ـ ان العروبة ليست فكرة وانما هي كيان . ونحن لانقبل لها تعريفا اقل من انها الجوهر الانساني الفعلي لتسعين مليونا من البشر يمتدون في الزمان والمكان امتدادا كاملا . وهذه العروبة ملكنا ونحن نلمسها ونحسها ونعيشها كل لحظة فلن نضيع وقتنا في التماس البراهين على وجودها . ان التماس الادلة على الاشياء البديهية هو عمل العاطلين والكسالى . ونحن اليوم مشغولون ببناء مجتمع حي جديد مادته هذه الملايين العربية « الخام » التي تنبعث عطشى للحياة والعمل . وما نؤمن به نحن العرب هو الواقع الوحيد الذي سيتحكم في مستقبلنا . اما صياح هذه الفلول الضئيلة من المتشككين فسوف يضيع في زحمة السواعد العربية التي تعمل . ان الانسان المتشكك يتخلف بالضرورة عن ركب الحياة . واما المؤمن الذي يتوكل على الله ويمضي يعمل بقلب مطمئن في اتجاه ايمانه فذلك هو الذي يكون اول من يصل .

وبعد فهل انت واثق ، ياأستاذ رجاء ، من ان هذه الشكوك التي تبذر في طريقنا لاتهدف عمدا الى الهائنا بالكلام وتأخيرنا عن العمل المجدي ؟ انهم يجروننا الى المجادلات اللفظية ، وتلك مصيدة خبيثة تنصب لنا ، وعلينا ان ننتبه اليها ونتعالى عن الوقوع فيها . ان امامنا عملا وبناء فهل نضيع وقتنا في الوساوس والمعارك الفارغة ؟ ان الفرد العربي اليوم لا يحتاج الى السفسطة ، وانما يتحرق الى ان نوجهه وجهة عملية يندفع في اتجاهها . ان الطاقة البناءة فيه تنتظر ان نصيح بها « انطلقي » فهل من المناسب ان ننشغل ـ نحن الادباء ـ على صفحات المجلات بمناقشة السؤال الموسوس : « هل نحن عرب ؟ هل ذلك بديهي ؟ » واذا نحن هبطنا الى مستوى الاعتراف بهذه الوساوس المريضة المدسوسة ، افلن نكون قد ساهمنا في زعزعة ايمان الشعب العربي بذاته ؟ ويالضيعة الانسان الذي يملك حقلا من الفاكهة فيتركه مهجورا ويجلس يتأمل مفلسفا : « هل هذا الحقل موجود ؟ » .

رجاء ـ ...العقبات التي تقف في طريق نمو الشعور القومي والوسائل التي تساعد على تحويله الى واقع سياسي وواقع اجتماعي ، والموقف الاقتصادي اللائم لهذا الاتجاه ، والموقف السياسي الخارجي . كل هذه الافكار هي ماينبغي على المفكر ان يدرسه .

نازك ـ كان عنوان بحثي « القومية العربية والحياة » ويظهر ان الناقد قد نسي ذلك . فانا ابحث في العروبة باعتبارها العاطفي الانساني لا باعتبارها الاقتصادي والسياسي . ولا ريب في ان الحديث عن « العقبات » و « الوسائل » يخرج تمام الخروج عن حدود بحثي .

ويا اخي الاستاذ رجاء ، لماذا تخلط كل الخلط بين القومية العربية والدولة العربية ؟ اننا عرب سواء اقامت في الدنيا دولة عربية موحدة ام لم تقم . وذلك لان العروبة مستقلة تمام الاستقلال عن شكل الدولة او الدول التي تقوم في داخل نطاقها . ان العروبة هي المادة الخام التي تملأ الوطن العربي ، واما الدولة التي تقوم على اساس هذه العروبة فهي القالب الذي سوف تنصب فيه تلك المادة . العروبة عاطفة ، اما الدولة فهي منهج . وانا ـ بصفتي الادبية ـ لااتناول المنهج ، وانما تعنيني العاطفة . ان ميداني هو الجانب الانساني من القومية العربية . واما تخطيط المناهج الاقتصادية والسياسية فهو في عقيدتي واجب المختصين لا واجب الادباء . وانا انسان يحترم الحدود العلمية ويعترف بما ينقصه . وليس من عادتي ان اتطفل على ماهو بعيد عن اختصاصي . وانه لمن المستحيل ان اسمح لنفسي يوما بان اكتب بحثا اتناول فيه مخططا اقتصاديا لتحقيق الدولة العربية . واذا كنت من الغرور والحماقة بحيث اقع في هذا المزلق ، فلن الوم الا نفسي حين يضحك مني المختصون .

رجاء ـ ... ماينبغي على المفكر ان يدرسه .

نازك ـ ان اقصى مارمي اليه من هذا البحث ، والابحاث التالية التي سانشرها حول « القومية العربية » ان اوصل صوتي المؤمن الى قلب الانسان العربي البسيط في ارجاء الوطن ، فاذا استطعت ان ابعث فيه خلجة حماسة وثقة ، او امنحه لحظة ايمان حار بالعروبة وبنفسه ، كان ذلك حسبي . وليثق الاستاذ رجاء النقاش انني لااتجه في هذه المقالات الى « المثقف » العربي الذي قرا برنارد شو وجان بول سارتر . ولعلي اصبحت اشعر بالخوف والنفور من هؤلاء « المثقفين » ، لمجرد انني افتقد لدى الكثير منهم حرارة البساطة العربية ودفء الايمان . وانما اكتب للعربي الذي لم يزل محتفظا بعاطفيته واندفاعه الى درجة انه لايتحرج أن يتحمس للعرب ولو تحمسا قائما على ادراكات غامضة وتمنيات واسعة . ان هذا الانسان القليل الثقافة ، الكثير الايمان ، هو اكثر نفعا للامة العربية من مثقف خائف من عروبته ، متشكك فيها ، يريد ان يكون موضوعيا وعلميا فلا يعرف كيف يفعل ذلك الا بان ينكر عروبته وينشر الشكوك والوساوس حولها . ترى هذا هو العلم الصحيح ؟ تراه يهدم ايمان الانسان بنفسه وامته ويحطم عفويته ؟ والواقع ان الفرد الذي يحب القومية العربية باندفاع عفوي فيه براءة الاطفال وايمان الشيوخ ، هذا الفرد هو الذي سيبني صرح الدولة العربية حين يوجهه الزعيم المخلص الفطن الحي الضمير . وخلال ذلك اين سيكون « المثقف » العربي ؟ انه ولا ريب سيقعد متجهما يتأمل في السؤال العويص : « لماذا انا عربي؟وما الدليل على ذلك ؟ » ولسوف ينشغل دائما بموضوعاته التي هي اهم لديه من حياة امة كاملة : « هل انا موضوعي ؟ هل تفكيري علمي ؟» وما ابعد هذه الاسئلة الجوفاء عن الحياة المتحركة الملتهبة بالنشاط والايمان . ما اتفه وساوس « المثقفين » بازاء عمل فلاح عربي جاهل يحفر الارض ويخرج منها كنوز الخير والرحمة والجمال : زيتون وقطن وخبز وازهار وآفاق من العمل والحياة لا حدود لها . تلك هي الحياة الحقة . فليبارك الله بساطتك يايها العربي الساذج ذي الايمان الكبير بالله وبالعروبة . انك موضوعي لمجرد انك لم تسمع بعد بالموضوعية ولم تتعلم ان تتحدث بها وتنشغل ، ولم تأت الثقافة الغربية لتوسوس في اذنيك الطاهرتين وتبذر في روحك الشكوك في قيمة نفسك واصالة عروبتك . ومنك انت ايها العربي الحبيب سوف ينبع الايمان الحق وتتدفق طاقات العمل والبناء . واني لاخشع امامك وانحني لبساطتك وامجد ايمانك الجميل . اني اعتذر اليك عن اية « موضوعية » قد اكون آمنت بها وسمحت لها ان تخرب ثقتي باصالة عروبتي وقيمة انسانيتي السمراء المتوهجة بالحياة فلتسقط الاصطلاحات كلها . ان العروبة هي الحقيقة الكبرى التي اعرفها واؤمن بها . واذا كانت الثقافة تكلفني ان اتشكك في بداهة قوميتي العربية وافقد ثقتي بنفسي فوداعا ياثقافة ! ان عروبتي اعز علي منك واحب الى قلبي ولن استعيض عنها بحفنة الفاظ لا قيمة لها .

رجاء ـ لا ياعزيزتي نازك ! ان قوميتنا العربيه لن تكون ولا ينبغي ان تكون قومية (البق والماء الاسن) .

نازك ـ انت تدري جيدا انني لم اقل هذا ، وحاشا لي ان اقوله . ويؤسفني ان اراك تتعمد اساءة التاويل . انك تعرف حق المعرفة ان ذلك مثل جئت به وانا اناقش الفكرة المثالية التي تزعم ان الانسان قد يؤثر محيطا اجنبيا على محيط بلده . ولم يكن ذلك دفاعا عن البق والماء الآسن ولا يمكن ان يكون . واظن انه من السخف حتى ان احاول نفي نسبة مثل هذا الكلام الفارغ الي . يكفيني ان اتساءل : اين الموضوعية في هذه النقطة من مناقشتك ؟ وهل يسوغ للناقد ان ينسب الى المنقود مالم يقله ثم يحاسبه عليه ؟ وبعد فقد سميت انا القومية العربية قومية السكر والعبير ، ووصفتها بانها فضيلتنا وكنزنا وحياتنا . واما انت فقد جعلتها قومية البق والماء الآسن ، وارجو حقا الا يكون ذلك هو رايك في القومية العربية . اسمح لي ان انسب هذه التسمية اليك انت وحدك ما دامت لم ترد في بحثي ، وما دمت انت الذي ابدعتها . وكم كنت اود لو انك نشرت الفقرة الكاملة التي ترى انني حكمت فيها على قوميتنا بانها قومية البق والماء الآسن ، ليطلع القراء العرب على هذا الكفر السقيم ويناقشوني عليه . ذلك ماكانت تحتمه عليك الموضوعية التي طال حديثنا عنها . وانما يحاسب المرء على ماقال ، لا على مايتمنى الناقد ان يكون قد قاله .

رجاء ـ اعتقد ان ثقافة نازك السياسية كما ظهرت في هذا المقال ليست بمستوى ثقافتها الادبية الرفيعة ، وليست بالمستوى الذي نرجوه من مبدعة مثل نازك ان تصل اليه باستمرار .

نازك ـ لقد سبق لي ان اوضحت الوجه الذي يجعل بحثي هذا ادبيا لا سياسيا . ومن ثم فان استنتاج مدى ثقافتي السياسية منه امر غير وارد اساسا ، ولا ادري لماذا يلح الناقد الفاضل على اثبات جهلي . ومهما يكن من امر فلا بد لي ان اخبر الاستاذ رجاء انه يسيء الى القومية العربية عندما يصغر دائرتها الى درجة ان يجعلها موضوعا سياسيا لا غير . ذلك انها اوسع من ذلك بكثير . انها الانسان العربي كله ، بملايينه التسعين . وليست السياسة الا علما صغيرا يحاول ان يسعد ذلك الانسان بتنظيم مجتمع طيب له . دعني اشخص ذلك بتشبيه يبرز المعنى . ان العلاقة بين القومية العربية والسياسة كالعلاقة بين الانسان وعلم الصحة . ومن ثم فان القول بان من لم يكن عالما بالاقتصاد السياسي لاينبغي ان يتحدث في القومية العربية يشبه تماما القول بان من يتقن علم الصحة لاينبغي ان يتحدث عن الانسان . وقد قلت في بحثي ان القومية العربية هي الحياة ، فارجوك يااخي الا تنزل بها دون ذلك المستوى العالي . ولنترك السياسة للسياسيين . اني غير مختصة بها ، وكل ما املكه هو ايماني بالعروبة وبمستقبلها المضيء . تلك هي حدودي ولن اتخطاها .

رجاء ـ ان اي تناقض بين القومية العربية والافكار العلمية هو خطر على الفكرة القومية .

نازك ـ ماأشد خوفك على القومية العربية يا اخي ! ولم هذا القلق والاشفاق كله ؟ اما انا ـ بايماني وسذاجتي ـ فاعتقد حق الاعتقاد انه مامن شيء خطر على القومية العربية على الاطلاق . ان العلم نفسه ضعيف امامها .وانما قوميتنا هي الخطرة على اي علم لايعترف بها . وما يكون هذا العلم ؟ وهل هو اقوى من حقائق الحياة ؟ هل يستمد قوته وتاثيره

الا من وقوفه الى جانبها ؟ هل يحاول العلم ان يغير طبيعة الشمس حين يدرسها ؟ ام انه يعترف بالحقيقة ثم يعمل في حدودها ؟ ولماذا يكون التناقض بين القومية العربية والعلم خطرا على العروبة ؟ هل تتغير هذه العروبة اذا ماخطر للعلم ان يتجاهلها او ينكرها ؟ ام ان على العلم نفسه ان يغير افتراضاته ومناهجه ليماشيها ؟ في الواقع ان الحقيقة تقتل من ينكرها ، وما من شيء اقوى منها على الاطلاق ان دمي العربي الذي يجري في عروقي ، ولون وجهي وعيني ، وتركيبي العاطفي ، هي ولا ريب ارسخ واقوى من اي علم يدرسها . ولن يكون العلم علما صحيحا نافذا اذا لم ينحن امام حقيقة عروبتي ويتخذها نقطة بداية ، افيطلب منا اليوم ان نحاول تشذيب قوميتنا وتعديلها لكي نرضي العلم ؟ افلا تنعكس المقاييس كلها بذلك ؟ لا بل ان قوميتنا سوف تمضي ثابتة القدم ، مرفوعة الجبين في طريقها الباني المغمور بضوء الشمس ، وعلى العلم ان يتبعها صاغرا ، ويعدل احكامه وفق حقيقتها الساطعة ، ... على هذا العلم الصغير ، طفل القرن العشرين ، ان يصل اليها ولو لاهثا محطما . ذلك انها اكبر منه واقدم واروع .

وخلاصة القول ، ياأخي ، ان العروبة هي المقياس الحق الذي نقيس عليه اصالة الاحكام العلمية . ام ترى اصبح لزاما على الفرد العربي ان يقصر قامته بقطع قدميه لمجرد ان يلائمه ثوب قصير صنعه له خياط مفرض ؟

رجاء – ان ثقافة المفكر القومي العربي السياسية ينبغي ان ترتفع وتنضج بالقدر الذي يتلاءم مع مسؤولية هذا المفكر وهي كبيرة جدا .

نازك – حقا يا اخي . ان الثقافة ضرورية ، لا للمفكر العربي وحده وانما للفرد المتوسط ايضا . ولكن ماصنف هذه الثقافة التي تطلبها لابناء العروبة ؟ اراك تذكر كولن ولسن وتسميه « زعيم المثقفين الساخطين من شباب اوروبا » فلعله يمثل لديك النموذج الذي يجب ان يحتذيه المثقف العربي ؟ والواقع ان ذلك غير ممكن الا اذا ارادت الامة العربية ان تنتحر لاسمح الله . وماذا نستفيد نحن من فلسفة اشخاص اكل اليأس نفوسهم وانغمسوا في الشر والجريمة والشذوذ الى درجة افقدتهم حس الانسان الطبيعي الذي يعمل ويتفاءل ويتحسس الله والطبيعةمدركا ان في الوجود عملا وخيرا واخوة وآمالا ؟ اليس ذلك هو مايأخذه كثير من شبابنا المثقفين عن الغرب هذه الايام ؟ انظر الى مافي ادبنا الجديد من تقليد لغثيان جان بول سارتر ويأس البير كامو وشذوذ آندريه جيد واباحية البرتو مورافيا . ان على ادب شبابنا اليافع اليوم ظلالا صفراء داكنة من حضارة الغرب الشقية المهمومة التي لم تعد تعطي ابناءها الا احتقار الحياة والتفسخ الخلقي . ذلك جانب واحد من جوانب الشر والهدم الذي تعطينا اياه ثقافة الغرب فتبعثر به حيوية شبابنا العربي البريء الذي نحتاج اليه للبناء والابداع فلا يكاد يطير لحظات حتى يهوي الى حماة اليأس والتقزز والرذيلة . واذا انهار الشباب العربي هذا الانهيار الروحي الفاجع ، اذا استسلم لليأس والخدر فمن سيبني الامة العربية ؟ وهل تملك الامة العربية كنزا أثمن من حيوية شبابها وايمانه وتوثبه ؟

ولكن هناك جانبا من ثقافة الغرب اخطر علينا واشد حتى من ذلك . انهم يعلموننا – بسبب لفتة في حضارتهم – احتقار انفسنا واستنكار تقاليدنا ونبذ عروبتنا ، والتعالي على بني قومنا الذين ما زالوا جهلاء سذجا . ان روحا من الغرور قد اصبحت تشيع لدى مثقفينا وكانهم اصبحوا اعلى من ابن الشارع الامي وارقى معدنا . والواقع الحق ان ابن الشارع – في جوهره – انقى منا نحن المثقفين وانصع عروبة واكثر عفوية واطيب نفسا . وهو فوق كل شيء اجرا منا واكثر صراحة واشد ايمانا بنفسه ان انسانيته غير ملوثة . وهو ما زال – رغم جوعه وعريه – يستطيع ان يحمد الله كل صباح ويمضي ليبني جدارا في حر الشمس او ليحرث حقلا صخريا وهو يلهث ويغني . اما نحن الذين نزهو بقراءة كولن ولسن فلم نعرف بعد ان الجهل هو حقا خير من الثقافة التي تسلب الانسان ايمانه بنفسه وبامته وتفقده براءته وصدق شعوره . وما نفع علومي اذا انا لم اكتسب منها اكثر من اليأس والغرور والشكوك وازدراء امتي ؟

تراني اهاجم الثقافة ، معاذ الله ان افعل ، ومعاذ الله ان يظن ذلك انسان . وانما ازدري تلك الثقافة التي تاتي بالتصنع وضعف الايمان وجمود الحس . وتلك اشياء لا تاتي بها الا ثقافة مبتورة او علم ناقص . وانما الثقافة الحقة هي تلك التي تبني النفس الانسانية وتلهمها وترفع مستوى الخير والابداع والنشاط فيها . الثقافة التي اريدها هي تلك التي تصيح بالفرد العربي : « ايها العربي انهض وواجه الحياة فانت سيد . انك طيب واصيل وموهوب والحياة تفتح لك ذراعيها لتعطيك كنوزها ووعودها لمجرد ان تنشط وتعمل . فامض لتبني عالما جديدا يتفوق على كل ما بناه السابقون . ان عليك ان تكون جريئا في ايمانك بذاتك معتزا بكل الملامح التي وهبتك الحياة اياها ، لان الطبيعة جعلتك متفردا ومستقلا واعطتك خواص لم تعطها لاي فرد سواك . فانهض واحمل الامانة التي نيطت بك . »

ذلك هو جوهر الثقافة التي نريدها للفرد العربي يا اخي . انها ثقافة تبني الفرد وتشخص له نواحي الخير والموهبة في شخصيته وتدفعه للعمل والايمان . واني لمؤمنة باننا نستطيع ان نعطي هذه الثقافة للجيل اليافع الذي نربيه ونعلمه اليوم ، اذا نحن كرسنا لذلك الواجب المقدس . ولسوف يكون الشباب العربي الطالع في المقدمة من موكب العروبة المثقفة المؤمنة . وان الغد لقريب ان شاء الله .

رجاء – ان نازك الملائكة بسيطة ، ساذجة ، غير موضوعية ، غير مثقفة في السياسة . (1)

نازك – اشهد الله على انني سوف ابقى بسيطة ، ساذجة ، غير موضوعية ، غير مثقفة في حبك يا عروبتي . ذلك هو مذهبي .

